

# الافتتاحية



## إرميا والمهمة النبوية الصعبة

رئيس التحرير

يهودا، وأن يكون الشاهد على ذلك كله، الأمر الذي حصل فعلاً سنة ٥٨٦ ق. م، تحت ضربات الجيش البابلي.

### ٢- زمن إرميا

عاش إرميا في واحدة من أكثر المراحل اضطراباً من تاريخ الشرق الأدنى القديم، وشهد سقوط إمبراطورية عظيمة، وقيام أخرى قد تكون أعظم من سابقتها. في خضم هذا الاضطراب، انهارت مملكة يهوذا بسبب مقاومتها لتلك القوة الساحقة، وبالأخص لأنها كانت بين أيدي ملوك أساؤوا وتدير شؤونها.

### ١/٢ - الشرق الأدنى

بعد حملات آشورنصربال العسكرية الباهرة (٨٨٤-٨٦٠)، وشلمنصر الثالث (٨٥٩-٨٢٥)، بقيت آشور القوة الرائدة طوال قرنين من الزمن، وبلغت الذروة أيام حكم أسرحدون (٦٨١-٦٧٠). كان بإمكان

### ١ - مولد إرميا في عناتوت

يقدم رأس الكتاب (إر ١: ١-٣) إلى القارئ إحدائيات تاريخية وجغرافية للنبي إرميا الذي ولد في منتصف القرن السابع ق. م. في قرية عناتوت، التي تبعد خمسة إلى ستة كيلومترات عن شماليّ أورشليم، ويتحدّر من عائلة كهنوتية، دعاه الله للقيام بمهمة نبوية سنة ٦٢٦ ق. م، في زمان الملك يوشيا. مباشرة بعد ذلك، لدينا رواية سيرة ذاتية لدعوته النبوية. العنصر ذو المدلول هو اعتراض إرميا، الذي كان لا يزال شاباً، والمشابه لاعتراض موسى قبلاً (خر ٣: ١١)، ولكنّ الربّ أزال هذا الاعتراض، وجدّد توكيل إرميا، مقدّمًا له الحماية، ومبيّنًا أنّه يفضّل في خياراته ما كان ضعيفاً ليخزي الأقوياء؛ ونذكر هنا، على سبيل المثال، اختيار داود الملك.

وعلى خلاف إرادته وعلى عكس طبيعته الحساسة، دُعِيَ إلى القيام بمهمة نبوية قاسية، ألا وهي أن يُعلن خراب أورشليم، وسقوط المُلْكِ الداوديّ في مملكة

## ٢/٢ - مملكة يهوذا

إبان ملك منسى الطويل (٦٨٧-٦٤٢)، بقيت يهوذا تابعة لأشور؛ جلبت لكنّ التبعية السياسية أدت إلى انبعاث عبادة الأصنام تحت شكل حركة توفيق انصهارية بين آلهة بلاد ما بين النهرين المرتبطة بالكواكب، وآلهة الخصب الكنعانية. استمرّ هذا الواقع السياسي والديني إبان المرحلة التي كان فيها يوشيا (٦٤٠-٦٠٩) ما زال قاصراً؛ لكن، سنة ٦٢٢-٦٢١، عندما تمّ اكتشاف سفر التوراة في الهيكل، قاد يوشيا حركة إصلاح شامل في يهوذا، بسطها حتى باتجاه إسرائيل الشمالية، التي كانت قد تحوّلت إلى مقاطعة آشورية منذ سنة ٧٢١. قد تسمح الظروف السياسية الدولية بتحرّك استقلالّي كهذا. في يهوذا، لا بدّ من أن يكون عدد من أفراد الشعب قد بقي أميناً للعهد اليهودي، ودعم بالتالي الملك يوشيا في سياسته الجديدة. وفي احتفال رسمي مهيب تمّ تجديد العهد الموسوي، وتبع ذلك تهديم شامل لكلّ المرتفعات حيث كانت تجري الممارسات الطقسية الوثنية، فأضحت أورشليم مركز العبادة الوحيد.

في سنة ٦٠٩، انتهى هذا الحكم المجيد بشكل مأساوي، إذ لقي يوشيا حتفه في معركة مجدو، عندما كان الملك يحاول أن يوقف ناكو، فرعون مصر، عن الوصول إلى حاران لينقذ آشورأوبليط الأشوري من سقوط وشيك. ولأنّ بابل لم تكن تسيطر على سوريا-فلسطين، تصرّف ناكو وكأنّه السيد الأعلى، فحطّ يهوذا عن العرش، وأرسله كسجين إلى مصر، وأحلّ مكانه يهوياكيم (٦٠٩-٥٩٨). على أيام هذا الأخير،

أشوربانيبال (٦٦٩-٦٣٣) في بداية ملكه أن يحافظ على هبة الأمبراطورية ومكانتها، لكن، وقيل النهاية، لاحت داخلياً وخارجياً علامات أفول نجم الأمبراطورية، وستختبر آشور وبسرعة كسوفها ثم زوالها من التاريخ، عند موت آشوربانيبال حوالي سنة ٦٣٣.

في هذه الأثناء، رفعت بابل رأسها لترى أنّ وقتها قد حان، ودورها قد أتى لتسيطر على الهلال الخصيب. هكذا، ثار نابوبولاصر (٦٢٦-٦٠٥)، وليّ العهد، بدايةً ضدّ آشور. وعندما حقّق استقلال بابل بالتمام، شنّ سلسلة من الهجمات على آشور بمساعدة أحشويروش، ملك الماديين. سقطت آشور سنة ٦١٢ (رج ناحوم ٣). فرّ آشورأوبليط الثاني، آخر ملوك آشور، إلى حاران، حيث قاوم نابوبولاصر لمدة ثلاث سنوات، بمساعدة ناكو، فرعون مصر. سنة ٦٠٩، استولى نابوبولاصر على حاران، وأكمل بسط أمبراطوريته الجديدة باتجاه الجنوب، حتى وفاته في شهر آب، سنة ٦٠٥. في ذلك الوقت، كان ابنه وخليفته نبوكدنصر قد هزم جيش المصريين في معركة كركميش، الأمر الذي أسفر عن هيمنة بابل سياسياً. أمضى نبوكدنصر (٦٠٥-٥٦١)، المحارب بطبيعته، معظم حياته على رأس جيشه خارج بابل. كانت مصر البلد الوحيد الذي قاوم سيطرته. سنة ٦٠١، تواجه الجيشان البابلي والمصري في معركة غير حاسمة على الحدود المصرية؛ وعلى ما يبدو، جدّد الملك البابلي محاولته للاحتلال سنة ٥٦٨ فقط، عندما كان في حالة فوز<sup>(١)</sup>.

(١) لدينا معلومات واسعة وكافية حول هذا القسم الأول من تاريخ الأمبراطورية البابلية الجديدة في المؤلف التالي:

D. J. WISEMAN, *Chronicles of Chaldean Kings*, London 1956.

أردنا ان نحدّد بكلمات وجيزة من هو النبي، بإمكاننا الاكتفاء بالقول بأنه الإنسان الذي يتكلّم، أو الإنسان المدعوّ لأن يقول شيئاً ما لأناس زمانه، وبالتحديد لشعبه. هو إنسان انقلبت حياته بالدعوة التي دعاه بها الله، ليقلب بدوره حياة شعب الله.

وكما حصل سابقاً مع أشعيا، طهر الربّ فم إرميا أيضاً، وهذا رمزٌ للمهمة النبوية؛ فلقد مسّ الربّ فم النبي وكأني به يكرسه ليصبح ملائماً وأهلاً لإعلان الكلمة الإلهية. إلى الشاب الضعيف وغير الواثق من ذاته تُوكّل مهمة القيام بقوة برسالة رهيبة كان الله قد أعدّه لها منذ حشا أمه، أي منذ بداية وجوده بالذات. من خلال سلسلة من أفعال أربعة متوازية يتمّ استحضار عمل النبي، المرغم على إعلان تدمير أورشليم، ونهاية مملكة يهوذا؛ ويكشف إعلان آخران المظهر الإيجابي لعمل إرميا، ألا وهو: زرع الأمل بشعب جديد وبعهد جديد مع الربّ. عند هذه النقطة يتمّ إدخال رؤيتين رمزيّتين:

– الأولى هي رؤية شجرة اللوز؛ لدينا في النصّ العبريّ لعبٌ على كلمتين متّصلتين: "شَقِد" (שָׁקֵד)، "شجرة لوز"، و"شَقِد" (שָׁקֵד)، "الساھر". الرمز واضح: لن يكون إرميا وحيداً، لأنّ الربّ سيكون إلى جانبه ليحرسه، وشجرة اللوز مع اسمها العبريّ هي علامة ذلك.

– ثمّ هناك قَدْرٌ يغلي، موجّهٌ نحو الشمال، من حيث تأتي الغزوات (خاصّةً الغزو البابليّ)، وعلى وشك أن تنقلب باتجاه الجنوب، أي على مملكة يهوذا.

يلي الرؤى تعليقٌ يُفصّح عن رسالة النبيّ، ألا وهي الإعلان عن غزوٍ تقوم بها قوّة غريبة، وكأني بها مهمةٌ شجبت خبيثة عبادة الأصنام وإزالتها من وسط الشعب العبريّ.

انتعشت النزعة التوفيقية الدينية من جديد في يهوذا، وبقيت المملكة سياسياً تحت حكم التأثير المصريّ. هكذا كانت مقاومة بابل الهمّ الأوّل لدى الملك، الأمر الذي أدى إلى سقوط أورشليم الأوّل، كما أيضاً إلى السبي الأوّل لقسم من سكان يهوذا سنة ٥٩٧.

كان يهوياكيم قد توفّي سنة قبل ذلك، وخلفه يهوياكين ابنه. نُفي الملك الشاب أيضاً إلى بابل، ولم يعد أبداً من هناك، وأحلّ نبوكدنصرٌ صدقيّاً عمّه مكانه (٥٨٧-٥٩٧). لم يحمل الملك الجديد خاتم الحاكم؛ كان متجاذباً بين حزبين وسياسيين، الأوّل كان يحثّ على الخضوع لبابل، لأنّه كان يقرّ بأن لا قوّة تقدر على أن تقف بوجهها، والثاني كان يحثّ صدقيّاً على الانضمام إلى مصر، ومن الممكن أيضاً إلى الممالك الصغيرة المجاورة بهدف وضع حدّ لسيطرة نبوكدنصر في الغرب. آخر الأمر تفوّق الحزب الثاني؛ وفي سنة ٥٨٧ حوصرت أورشليم، وسُبي سكان اليهودية مرّة ثانية. فُقئت عيناً صدقيّاً، ثمّ أرسل إلى المنفى البابليّ، وتمّ تحويل يهوذا إلى مقاطعة بابلية. إثر ذلك، عيّن نبوكدنصرٌ جدلياً، الذي من اليهودية، حاكماً على المقاطعة الجديدة، مع المصفاة كمرکز إداريّ جديد. بعد مرور شهرين على تعيين جدلياً، اغتيل بتحريض من ملك عمّون. وإذا عتري الخوف عدداً من سكان اليهودية، هربوا إلى مصر للنجاة من انتقام نبوكدنصر، وأخذوا إرميا معهم عنوةً.

### ٣ – إرميا ودعوته النبوية

في هذا الجوّ السياسيّ المعقّد والصعب، تلقّى إرميا دعوة الربّ لأن يكون نبيّ الله في وسط شعبه. قدّس إرميا من حشاشته، حسبما جاء في إر ١: ٥: "وقبل أن تخرُج من الرّحم قدّستك". نحن أمام دعوةٍ تقلب الحياة؛ فإذا

كان جوّ يهوذا الدينيّ متدنّيًا جدًّا؛ فلقد كان يوشيا ملكًا شابًّا، بالتالي غير قادر بعدُ على اقتلاع جحود منسى. يذكر إرميا، وتحت تأثير هوشع سلفه، بأنّ العهد هو أساسًا مسألة محبة بين الربّ وإسرائيل، محبة يرمزُ إليها بما يوحد بين رجل وامرأة في الزواج؛ فإذا لم يتب الشعب المختار عن الوثنيّة، ستكون غزوة كارثية آتية من الشمال بمثابة انتقام الربّ من موقف زنى كهذا. في هذا التاريخ المبكر، من المحتمل ألاّ يكون إرميا قد رأى بوضوح من يمكن أن يكون هذا الغازي. يُعتقَد أخيرًا أنّ إرميا كان يأمل أن يُعاد بناء مملكة الشمال (إر ٣٠-٣١).

سنة ٦٢١، قام يوشيا بإصلاح ديني في مملكته، بمناسبة اكتشاف كتاب التوراة. أيد إرميا بالتأكيد الملك (١١: ١-١٤)، وهذا هو السبب الذي من أجله لا نسمع إلاّ القليل عنه حتّى وفاته سنة ٦٠٩.

مع ارتقاء يهوياقيم العرش، ابتدأت مرحلة جديدة في حياة إرميا. انخسف الإصلاح بسرعة، وكانت هناك عودة شاملة إلى الوثنيّة. سياسيًا، استولى الحزب المصريّ على السلطة. استأنف إرميا تنديده بعبادة الأصنام وبالوثنيّة وبسطحيّة الشعارات المرتبطة بالعهد. أصبح التهديد بحرب محتملة أكثر إلحاحًا. عندما هزمت بابل مصر في كركميش سنة ٦٠٥، عرف النبيّ جيّدًا من يُمكن أن يكون الغازي. في تلك السنة، أملى أقواله النبويّة السابقة كلّها على باروخ الذي كتبها على دُرّج، كتحذير علنيّ أخير للشعب كما لقادته معًا (إر ٣٦). نجد هذه الأقوال النبويّة في هذه المرحلة الثالثة في الفصول ٧-٢٠.

حتّى ولو كانت تحذيرات إرميا صريحة، لم يبدل يهوياقيم شيئًا من تصميمه الدينيّ والسياسيّ. يمكننا أن نفترض أنّه، خلال المرحلة الأخيرة من ملك هذا الملك (٦٠٥-٥٩٨)، كان على النبيّ أن يواجه المقاومة

سيمنح الربّ قوّته لإرميا النبيّ الشابّ، الذي ما زال على هذا القدر من التردّد، وسيجعلُه شبيهًا بعامود من حديد، وبحائط من البرونز، أو أيضًا بمدينة محصّنة، تبدو ليس فقط وكأنّها لا تُقهر، بل أيضًا قادرة على أن تصدّ المقاومات الأشرس. سيكون إرميا بحاجة إلى هذه القوّة لأنّ حياته كلّها ستكون صراعًا ودون هودة. يبدأ جنى الأقوال النبويّة الحقيقيّ بمقطع مكثّف جدًّا مكوّن من أجزاء عدّة، من الفصل ٢ وحتّى الفصل ٤: ٤.

#### ٤ - رسالة إرميا

دعا الله إرميا ليكون نبيّ اليهوديّة والأمم في خضمّ هذه التشنّجات السياسيّة. دامت خدمته حوالى الأربعين سنة (رج ١: ٣-١)، ويشهد كتابه أنّ مداخلاته كانت عديدة. في الواقع، تطلّبت العقود الأخيرة من تاريخ اليهوديّة انسيابًا متواصلًا للنور من مرسلّي الربّ؛ فبالإضافة إلى إرميا، نقل صفيان، وحبوق، وناحوم، وحزقيال أيضًا كلام الله، لكن من كلّ هؤلاء الرجال الملهمّين لم يبلغ أحدٌ منهم قامّة إرميا أو مكانته من حيث إحساسه تجاه محبة الربّ لشعبه، ومن حيث فهمه العميق لواجب الشعب تجاه الربّ من خلال رُبط العهد. لذلك، فإنّ كلمة إرميا النبويّة هي مشهورة بكونها كلمة مباشرة وحاسمة في إعلانه الطبيعة الحقيقيّة لليهووية، وفي تنديده بالانحرافات الدينيّة المختلفة. يهدف الموضوعان المهيمنان في رسالته حصريًا إلى تحديد اليهووية الحقيقيّة، والإعلان عن الحروب الوشيكة كعقوبات على انحرافات يهوذا.

يغطّي القسم الأوّل من خدمة إرميا السنوات التي تمتدّ من تاريخ دعوته (٦٢٧-٦٢٦) وحتّى إصلاح يوشيا (٦٢١)؛ تشكّل معظم أقواله النبويّة الأقدم الفصول ١-٦.

كذلك سيترك لنا باروخ، أمين سرّه الخاص، في الكتاب عينه، صفحات سيرة ذاتية حول المصير المرير لمعلمه الذي أرسله الرب ليعلن النهاية لشعب كانت تعصف به الأوهام القومية، وكان يمارس تدنيًا قاحلاً، وكان يحكمه ملوك غير أهل لذلك. بعض أقوال النبي هو عنيف، يكشف في الغالب عن ألمه، وعن تناقض رسالته النبوية، التي تتضمن حكم دينونة وشجب، في حين كان هو يتمنى أن تكون رسالة توبة واهتداء وخلاص ليس إلا.

### ٦ - مهمة إرميا

نجد تحديداً لمهمة إرميا النبوية في إر ١: ١٠، بأفعال ستة، تتكرر أكثر من مرة في سفر إرميا: "إني أقمتك اليوم على الأمم وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنفق، وتبني وتغرس". تصف هذه الأفعال الستة عمل الله بالذات تجاه الشعوب (إر ١٨: ٧-١٠)، والذي إرميا هو أدواته.

يُستعمل الفعل "يقلع" بشكل دائم تقريباً بمعنى استعاري: تشير العبارة "اقتلاع أمة" إلى تدميرها أو إلى سببها. من النادر أن يجري الكلام في العهد القديم على الله الذي "يدمر"، لكن عندما يحصل أمر من هذا القبيل يكون ذلك بهدف معاقبة الأشرار أو الأعداء. هذا الاستعمال للفعل "دمر" نصادفه أيضاً بالنسبة إلى الفعل المماثل "يهدم"، والفعالان يوجدان بصياغة عربية مختلفة في مز ٥٨: ٧: "اللهم اهزس أسنانهم في أفواههم، وخطم أيها الرب أنياب الأشبال" (الكاثوليكية) / "اللهم، كسر أسنانهم في أفواههم. اهشم أضراس الأشبال يا رب"

والاعتراض والاضطهادات؛ مرّ إذّاك بأزمة داخلية من حيث إيمانه برسالته وبإلهه، يصفها بقصائد غنائية، هي "اعترافاته". هذه القصائد هي الآن مبعثرة في الفصول ١١-٢٠.

المرحلة الأخيرة من حياة إرميا تمتد من سقوط أورشليم الأول سنة ٥٩٧ وحتى موته في مصر على أثر تدمير يهوذا (٥٨٧). لم يعد صديقاً قادراً على معالجة الموقف؛ في الواقع، كانت الأحزاب السياسيّة القوى الحقيقيّة التي قادت يهوذا إلى دمارها القاسي وخرابها النهائي. لم يكن إرميا أبداً ناشطاً إلى هذا الحدّ قبلاً في المجال السياسي كما كان في العقود الأخيرة تلك. كان الملك يثق به، وحاول أن يخلصه من أيدي القادة الذين كانت لهم سياسة مختلفة. معظم خطباته وأقواله النبوية حفظها باروخ وضمّنها في روايات تسجل ظروف مداخلاته ومفاعيلها (إر ٢٧-٢٩؛ ٣٢-٤٥). بعد ذلك فهم إرميا أنّ اهتداءً حقيقياً إلى الرب هو من الناحية البشريّة مستحيلاً؛ كان على الرب بالذات أن يغيّر قلب الشخص المعني، و فقط عند ذلك يستطيع العهد الجديد أن يربط الشعب بإلهه إلى الأبد (إر ٣١: ٣١-٣٤). هذا الترتيب الجديد للأمر قد يستطيع أن يوحد من جديد يهوذا وإسرائيل، لكن فقط بعدما يكون المنفى قد طهرت عنّتهم في الخطيئة<sup>(٢)</sup>.

### ٥ - اعترافات إرميا

الشاهد على الحدث الشخصي للنبي هو نوع من مذكرات خاصّة وحميمة، تُدعى اعترافات إرميا، نجدها في الفصول ١٠-٢٠ من الكتاب الذي يحمل اسمه.

(٢) للاطلاع على تفاصيل أكثر، يمكن مراجعة مؤلف ج. برايت التالي: J. BRIGHT, *Jeremiah*, AB 21; GC 1965, LXXXVI-CXI.

لهجته، ويشير بمستقبل رجاء وتحرير لمملكة إسرائيل، التي كانت قد سقطت قبل قرن ونصف من تاريخه، كما بالمستقبل عينه أيضًا لمملكة يهوذا.

في الفصول ٣٦-٤٥، لدينا بعض الروايات التي جمعها باروخ، على ما يبدو، حول الأحداث الموحجة التي حلت بإرميا، خاصة في مواجهة ملوك زمانه، وحول الفرار المأساوي الأخير إلى مصر، الأمر الذي أرغمه عليه المتمردون العبرانيون على الحكم البابلي.

الفصول ٤٦-٥١ هي، بالمقابل، مخصصة للأمم المحيطة والمجاورة، خاصة بابل، "المطرقة" التي بين يدي الرب.

يتكشف غنى هذه الأجزاء الأربعة فقط من خلال قراءة مباشرة لنصوصها الرائعة مضمونًا وأدبًا.

(فان دايك). بالمقابل، يرد الفعلان "بنى" و"غرس" معًا ليصفاً ازدهار إسرائيل، أو عناية الله المُحِبَّة بشعبه.

تعتبر رسالة إرميا مزدوجة: شجبٌ وحكمٌ، من جهة، وخلاصٌ وتعزيةٌ ورجاءٌ، من جهة ثانية. يتطابق رَجحانُ الأفعال ذات المظهر السلبي مع المضمون العام للسفر.

## ٧ - سفر إرميا رباعي الأجزاء

إن الكتاب الذي وصل إلينا في شكلٍ مختلفٍ جدًا عن النص اليوناني القديم، نص السبعينية، بالمقارنة مع الأصل العبري الذي بين أيدينا، بالإمكان قسمته إلى أربعة أجزاء كبيرة:

في الفصول ١-٢٥ هناك أقوال نبوية قاسية جدًا ضد مملكة يهوذا ومدينة أورشليم.

في الفصول ٢٦-٣٥، عندما كانت المأساة على وشك أن تقع، ولم يعد هناك من مفرّ منها، بيدّل النبي من

